نظرات خاطفة

شاعر السودان *

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصري

وهذا شاعر آخر من السودان ، القطر الذي فتنت بنبل كرم أهله ، وسمو أخلاقهم ، وعروبتهم الأصيلة ، القطر العربي الإفريقي المصري الذي ظلت قيود الاستعمار البغيض تعض ساقيه سنوات طوالا ، وسوطه يلهب الظهور ، ويدمي الرقاب ، وهو ثابت كالطود الأشم يكافح ويناضل في سبيل استقلاله وحريته ، والمحافظة على لغته الأصيلة ، لغة القرآن الكريم ، دون أن يلين أو يستكين ، وبين حين وآخر يلتفت نحو منبع النور والثقافة والحرية ليهتف على لسان شبابه المتوثب :

أمل في الزمان مصر فحيا الله مستودع الثقافة مصرا
نصر الله وجهها فهي ما تزداد إلا بعداً على وعسرا
إنما مصر والشقيق الأخ السودان كانا لخافقي النيل صدرا
لا رغبنا عنها ولكن دهراً ناوأتنا صروفه كان دهرا (١)

في هذا القطر المترامي الأطراف والجوانب ، الشاسع الحدود ، الذي يعيش فيه أهلوه وأكثر شبابه غرباء ، غرباء الروح والفكر ، يظهر بين فترة وأخرى فنان يعيش لأجل فنه يرى بعينه آلام شعبه ، فيحرق نفسه بخورا لينير لهم السبل القويمة لعله يوصلهم إلى محجة الخير والسعادة والكمال ، ومن هؤلاء الأفذاذ الذين أنجبتهم هذه الأمة الكريمة العربية المجد والأصل شاعر عربي النزعة مصري الهوى بدوي النفس شعره جميع الخصائص والميزات التي يتصف بها الشعر « الكلاسيكي » الأصيل ، من جزالة في الأسلوب ، وإشراق في الديباجة ، وجمال في المبنى والمعنى ، وهو الأستاذ محمد سعيد العباسي

* أشكر الأخوين الكريمين الأستاذ الفاتح علي مختار وعبد الفتاح الحاج علي صالح العبادي على إهدائهما « ديوان العباسي » لي

١) من شعر المرحوم النيجاني يوسف بشير الصفحة (٨٦) من ديوانه — أشرافه —

م. حمزة عياش :

كتب الشاعر تاريخه بقلمه فقال : (٢)

« أنا محمد سعيد العباسي بن محمد شريف بن نور الدائم بن أحمد الطيب العباسي منشئ الطريقة السمانية بمصر والسودان ، ولدت بمز أديب ولد نور الدائم بالنيل الأبيض ٢٣ من رمضان سنة ١٢٩٨ هجرية (٣) ، ولما انتقل بي والدي في حوادث المهدية إلى الشيخ الطيب بمديرية الخرطوم شمالا وبلغت من العمر سبع سنين أدخلني مكتبا « خلوة » لقراءة القرآن عند عمي الزاهد الورع الشيخ زين العابدين ، ثم تنقلت في مكاتب أخرى تبلغ العشرين عدا ، وكان والدي يأمرني أثناء قراءة القرآن بحفظ متن الآجرومية صوره لي بنفسه مع متن الكافي في علم العروض والقوافي ، وبعد استرجاع السودان ودخول الجيش المصري طلب « كتشنر » من والدي إلحاقي بالمدرسة الحربية المصرية فدخلتها يوم ٢٨ مارس ١٨٩٩ م وبعد سنتين استعفيت لأني رأيت أن لا أمل لي في الترقية وإن كنت أول الناجحين في الامتحان »

ثم يسترسل المترجم فيذكر أساتذته الذين تأثر بهم فيقول :

« إن أولهم كان أباه الذي حثه على حفظ أشعار الفحول القدامى ثم أستاذه الجليل المرحوم الشيخ عثمان زناتي الذي كان في طليعة الشعراء والأدباء في زمانه ومن رثائه له يستبان لنا ذلك حيث يقول :

فيا رحمة الله حلي بمصر ضريح الزناتي عثمانيه
فذاك بآدابه يافعا وقد شادني دون أترابيه
ويا شيبة الحمد إن القريض أعجز طوقي وأعيانيه
أعرني بيانك أسمو به الأصم ، وأنطق به الراعيه (٤)

وهذا كل ما يعلمنا عنه الشاعر من سيرته التي كتبها بقلمه ولكننا لو رجعنا إلى مقدمة الكتاب التي كتبها الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك نراه يوضح المميزات الخاصة بشعر العباسي وتأثره

٢) ص (٩) من ديوان العباسي والديوان يقع في (٢٠٤) من القطع المتوسط ، مطبعة الاعتماد ، دار الفكر العربي

٣) أي أنه مضت حتى الآن (٧٣) سنة على ولادته أمد الله في عمره

٤) من قصيدته « رسائل الصفا » ص (٥٢) التي وقفها الدكتور زكي مبارك وصدرها اهداء الديوان

بالحياة المضطربة التي عاشها في السودان والحوادث السياسية التي تعرض لها والتي صحبته في أواخر القرن المنصرم ، قال :

« فالسيد العباسي إذا صدح في شعره أحسست في موسيقاه أصداء أناشيد الشريف الرضي إذ تتردد في شعره حرارة السراة السادة الذين يحسون مسئوليتهم في المجتمع ، وتجمع معها نغمة أخرى من كرامة السادة الذين يحسون قصر اليد عما يريدون

وإذا كان شعر السيد يمثل لنا ديباجة موسيقى السيد الكريم ، فإن فيه ألواناً أخرى تذكرنا بأرواح يملؤها الطموح وتتقد فيها حرارة القلب الذكي . فهو إذن رجل يجمع نفس الحر الأبي القلب القوي الذكي إلى فن الشاعر الذي يغوص إلى أعمق المعاني ويصورها في أبرع اللوحات . ثم هو في ديباجته فذ لا يكاد يجد له الناقد عديلا إلا في عباقرة الشعراء من قدماء ومحدثين (٥) »

وإذا أردنا نحن أو أراد ناقد آخر أن يكشف للقارئ عن تلك الخطوط التي أشار إليها الأستاذ أبو حديد فهل يستطيع ، أما أنا فأقول بالإيجاب ، ومن قرأ له مثل هذه الأبيات :

إلى كم أمنّي النفس ما لا تناله ... بجوب الفيافي وادراع الفدافد (٦)
وقد رقد السمار دوني فهل فتى ... يسير أخا البأساء أجفان راقد
فيانفس إن رمت الوصول إلى العلا
ردى قسطل الهيجا وغمرتها ردى (٧)
أما ويمين الله وهي أليّة ... تقال فتثنى من يمين وشاهد (٨)
سأصفح من هذا الزمان وماجنى ... متى ظفرت كفاي منه بماجد
وإن ألقه بعت الحيـــاة رخيصة
وآثرته باثنين : سيفي وساعدي (٩)

وقوله :

يا أعجب الأيام كم دفعت بنا ... في ذي الحياة الى مضيق
أنا في زمان عشت فيه بمعشر ... يجزى الجميل لديهمو بعقوق
طرحو المهند للعصا واستبدلوا ... بالأمس تغريدي لهم بنهيق
مادمت سباقا فليس بضائري ... أبداً مقال مدفع مسبوق (١٠)

لا يشك في أن الروح التي كانت تمتاج في أجساد الشعراء السادة الفحول من شعراء العرب وخصوصا الفرسان هي نفسها التي كانت تضطرم بين جنبي شاعرنا العباسي إبان نظمه الأبيات الآنفة الذكر . ولا غرو فالعباسي كان من أرباب السيف والقلم ، وقد خاب في مضمار السيف فتركه ليبرع في الشعر أسوة بشاعر النيل حافظ إبراهيم ... على أن حافظا كان وحده الله فقيرا محتاجا فكان يحس في أعماق نفسه بالجامعة فأراد أن يكون شاعر القصر عساه يتمتع بعباهج الحياة في ظل القصور الفارهة الناعمة ... ولما خاب أمله اتجه إلى الشعب ليسكب ثورة نفسه وألم خيبته في الشعر الذي كان يعبر به عن آمال نفسه . أما العباسي فقد كان مكتفيا وكانت المادة متوفرة لديه فلجأ إلى الشعب يخاطبه بشكل آخر ، شكل السيد الآمر ، والزعيم المضطهد . لذلك جاءت في شعره أنفاس من طموح الزعماء ، وآلام من ثورة الأحرار الذين رغم انصرافهم إلى السياسة وأمور الدنيا لم ينسوا آخرتهم ودينهم لتأثير الناحية الدينية عليهم منذ نشأتهم

٥) مقدمة الأستاذ أبو حديد من ص (١٣ إلى ٢٠) من الديوان
٦) الفدافد جمع فدفد وهي القلاة
٧) قسطل الهيجاء ، غبار الحرب
٨) الأليه : اليمين
٩) قصيدته « من سائلي » ص ـ ٤٦ ـ الديوان
١٠) قصيدته « آلام وآمال » ص ـ ٩٨ ـ الديوان

البقية في العدد القادم — عبد الغفار رشيد الناصري

مختارات من الأدب الفرنسي
شعر ونثر
للاستاذ أحمد حسن الزيات بك
مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد القريدة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها
ثمنه ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد